

إرادة الصمود في شعر الاميري

حسام عبد القادر صالح
كاتب سوداني

٢٠٠٥-٠١-٠٤

إرادة الصمود في شعر الاميري
"لعل من أبرز جنيات السياسة على الأدب البناء والفن الرفيع أن اعتقلت الأستاذ
عمر بهاء الأميري سفيراً لسورية في كراتشي وجدة فترة من الزمن بعد أن
أمضى جانباً من العمر الذي مازال فتياً صاحبه. في مختلف الأعمال.. خلف مكتب
أنيق وأضابير منسقة تغص بمقررات وتقارير تفرضها طبيعة العمل الدبلوماسي
والتخطيط السياسي الدقيق.. وقليلون من عامة الشعب وجماهير المسلمين هم الذين
يعرفون الأستاذ الأميري شاعراً مطبوعاً.. رقيق اللفظ في جزالة.. عميق الفكرة
في وضوح.. غزير الإنتاج في غير تيزل أو اسفاف.. مبدعاً فيما يسيل من
مشاعره وأحاسيسه المرفهة على الورق ليعلن عن شاعر كسبته دنيا السياسة
وخسرته دنيا القلم والفكر والجمال.."

هكذا وصف الأديب الأستاذ يوسف العظم الشاعر الراحل عمر بهاء الدين
الأميري.

لمحة عن حياة الأميري:

الأميري سوري الأصل ولد عام ١٩٢٠م ونشأ وأتم دراسته في الأدب والعلوم
والفلسفة في حلب، ودرس الأدب وفقه اللغة في السوربون بباريس والحقوق في
الجامعة السورية بدمشق..

مارس (الأميري) المحاماة في نقابة المحامين بحلب وترأس المعهد العربي
الإسلامي بدمشق ورحل إلى المغرب أستاذاً لكرسي الإسلام والتيارات المعاصرة
في دار الحديث الحسنية بالرباط عام ١٩٥٥م زائراً ومحاضراً في جامعات
الرياض والإمام محمد بن سعود والأزهر والجزائر والكويت وصنعاء وعدد من
الجامعات الإسلامية في باكستان وتركيا وأندونيسيا.

وقد كان سياسياً إسلامياً مخلصاً، شارك في الدفاع عن (القدس) وحمل السلاح
مجاهداً مع جيش الإنقاذ خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨م، وأسهم في تأسيس
حركة (سورية الحرة) وكان رئيساً للجانب السياسي فيها، ومثل سورية وزيراً
وسفيراً في وزارة الخارجية، وتوفي رحمه الله عام ١٩٩٤م، ودفن بالمدينة
المنورة.

شاعرية الأميري:

الأميري شاعر منذ بواكير عمره، يحكي عن نفسه ويقول: "بدأت أقول الشعر وأنا طفل في التاسعة وأحرقنت ديواني الأول وأنا ابن اثنتي عشرة.."(١) وعن شعره قال العقاد: "دعاء يتكرر، ويتجدد ولا يتغير، يطالعه القارئ، فيسعد بسحر البيان كما يسعد بصدق الإيمان"(٢) ويتحدث عن شاعريته واسلاميته الإمام الراحل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - فقال: "الشاعرية في شاعرنا الأميري قوية مشبوبة موهوبة جياشة تستند على حظ من البيان العربي غير قليل وثروة من اللغة محيطة بالمعاني وان لايمان صاحبنا الوزير الشاعر وتقواه وتربيته الدينية ومحافظته على الشعائر دخلاً كبيراً في تكوين شاعريته واضفاء جلال الدين عليها.."(٣).

آثار الأميري الفكرية:

كان الأميري مثار اهتمام الأوساط الأدبية - محلياً وعالمياً - وقد وصفه أكثر من ناقد وأديب ب(اقبال العرب) اشارة إلى شاعر الإسلام الكبير محمد اقبال - رحمه الله -، وقد وضع الأستاذ محمد قطب (الأميري) في كتابه الرائع (منهج الفن الإسلامي) ضمن خمسة، أربعتهم سكينه بنت الحسين وابن الرومي وطاغور ومحمد اقبال، وذكره الشاعر الدكتور عبد الرحمن العشماوي في كتابه (علاقة الأدب بشخصية الأمة) على رأس قائمة من الشعراء والأدباء والاسلاميين الذين غرسوا في تربة الأدب الاسلامي روائع ابداعاتهم(٤) وكان (الأميري) حاضراً في دراسات العديد من المستشرقين وترجمت بعض قصائده إلى عدد من اللغات.

الأميري والحركة الإسلامية:

لم يكن (الأميري) شاعراً وأديباً فحسب، بل كان من رموز الحركة الإسلامية ورائداً من رواد العمل الإسلامي المعاصر، وكانت له علاقاته الواسعة مع رجالات الأمة وقاداتها وكان قدوة عملية في إرساء أدب الخلاف بين من يتعامل معهم من الإسلاميين وأشعاره تشهد على رحلاته الخاصة لاصلاح "ذات بين" وقع هنا أو هناك، وكان - رحمه الله - ذا خلق جم وصدر رحيب.

إرادة الصمود في شعر الأميري:

وبعد؛ فإن أجمل وأروع وأكرم ما يسجل للأميري في هذه الساعات العصبية من تاريخ أمتنا الزاحفة نحو المجد، أن ينزل الأميري الميدان بشعره في عصر كثر فيه المتآمرون على كرامة الأمة وأمجاد التاريخ من شعراء الجنس والإغراء

والشهوة.

ولعل أبرز ما يشتقه الناظر من شعر (الأميري) .. تلك الإرادة الصلبة والسمود الشامخ في مواجهة شدائد الحياة ومفاتن الدنيا ومغريات الشهوات، على خلاف شعراء ادعوا الحدائث زورا وسقطوا عند أول اختبار للصلاية، وعاشوا أدلة الشهوات والمغريات تحت ثياب المرونة وواقعية الأدب ولافتات الفن للفن. و(الأميري) يصور - في روعة - الحقيقة المركبة في النفس البشرية ألا وهي الصراع بين الغرائز والأهواء الدنيا، وبين المبادئ والمثل العليا، ويختصر ذلك في جمالية مبدعة، ويقول:

"في نفسه ملك .. يلفه حلك .. كأنه فلك .."

إن (الأميري) يصور الاغراء وهو يستدرك الإنسان عن طريق الخطيئة والانحراف، ويصور استجابة النفس حتى لنوشك أن نقول أنه لا قدرة للنفس الضعيفة على المقاومة، ثم يصور لنا انتصار المثل والمبادئ على نوازع الشر ومهاوي الضلال تصويراً يجعلنا نوقن أن نفس المؤمن لا تهزم، وإن الشيطان على الدوام يجثو في النهاية عند قدمي المؤمن الصادق في ضراعة ذليلة وتسليم مخذول، ويقول الأميري:

ما فتى الشيطان يغريني
ولم ينل مني مأمولا
تخذت لكي أدراً تسويله
حبلا إلى ربي موصولا

الأميري والشباب:

إن الذي يقرب (الأميري) من أجيال الشباب الناهضة انه (لا يرتدي مسوح الوعاظ ليقف فينا موجهاً ومرشداً بأسلوب الأمر والنهي الجاف، بل إنه في شعره يبدو انساناً ككل الناس له غرائزه وميوله وفيه نقاط الضعف المركبة في النفس؛ ومن يقرأ جل قصائده يلمس أنه كيف كان صادقاً في نقل تجاربه إلينا بصراحة وبلا موارد لا كما يفعل بعض المتظاهرين الذين يريدون أن يوهموا الناس بأنهم من طينة أخرى، وإن وسوسات الشيطان وأحاييله ليس لها في حياتهم أي دور ولا في سلوكهم أي تأثير (٥) وله من أبيات:

يقظتي تستغفر الله
وأحلامي ذنوب
وأنا بينهما حيران
أغوى وأتوب

وأنت تجد (الأميري) يتألم من مفاتن الجمال ومغريات تستهويه وتصيبه، فيلوذ بجوار ربه ويعوذ بوزره، ويعترف بعجره وضعفه، وقد تلقى العلم في باريس الخلافة حيث الفتنة والإغواء وهو شاب ناشئ غض الشباب فحافظ على شرفه ومروءته وعاش عاليًا وغيره في سقوط.. ومن قصيدته الرائعة (ضراعة ثائر) يقول:

كيف أنجو يا خالقي من شبابي
وشبابي قد كاد يدني دماري
أنت سويتني وألهمت نفسي
خطيئتها من التقى والفجار
وأنا منهما في حرب لظاها في
ضلوعي يشوي وفي أفكاري
لم أرم قط أن أدسي نفسي
كيف أرضى للنفس ذل الصغار
ولو أنني كفيت اغواء عصري
وأحاييل خلقه الأشرار
وحُببت اختيار وجهة أميري
لتساميت واستقر قراري

الأميري وصراع الهدى والهوى:

وهذا الصراع العنيف الذي عاشه الأميري – الشاعر الإنسان – ضد الثقلة والهبوط والقيود والضرورة القاهرة والتهيه والانحراف لم يخلد به إلى التسليم والاتكالية وادعاء ضغط الواقع، بل حمل المسؤولية وسار بكل إيجابية؛ يقول عنه صديقه الزبييري شاعر اليمن: (ظلت مشاعر صاحبنا مشغولة بهذه الحرب الخفية مع عوامل الاغراء والفتنة وفورة الشباب لا يصرفها عنه إلا نشاطه الإسلامي فقد كان هذا هو المجال الوحيد الذي يستطيع الهروب إليه من مرارة هذا الصراع، لذلك يقول زملاؤه الذين عاصروه في باريس وفي غير باريس بأن جهاده في سبيل القضية الإسلامية لم يكن في يوم من الأيام كما كان في فرنسا ووطن المغريات والمفاتن ومن أبياته:

هل ألبس العمر أوزارا بعد عفته
وأعقب الصبر أثاما وأوزارا؟
أم أمسك الداء قد جالت قواصمه
حمى بجسدي اوصالا وأغورا

لقد تسامى (الأميري) بغريزته وحولها إلى قوة يناضل بها عن الإسلام فحمل على عاتقه عبئا ضخماً من أعباء الحركة الإسلامية، ولكنه في شعره يطلق نفسه على سجيته فيتجلى فيها الألم والضيق من مرارة هذا الصراع وفي صمود المسلم وإصرار المجاهد يقول:

سأبقى أجاهد الشر عمري
ولو أني كالعود في تياره
قد يموت الإنسان في إصراره
ويعيش الإنسان في آثاره
رب حر مكبل اليد عان
شب في عزمه مرير أساره
هشم الكفّ في عناد ملحّ
ورمى القيد عنه في إصراره
ومضى والإله نصب مناه
يتخطى الردى ملء اختياره
قهر الصعب وانتضى العزم
حتى أخذ المجد عنوةً باقتداره
كم ينال الزمان من أحراره
فخار الزمان في أحراره

النصر مع الصبر:

إننا في عصر الهزائم والاستدراك هذا، أشد ما نحتاج إليه هو الصمود والصبر، ليتحقق ما نرجوه من نصر، فإن المسلم يوقن أن النصر مع الصبر، وجهاد النفس يسبق كل جهاد، فإذا لم نتصر في معركتنا الصغيرة مع ذواتنا ودنيانا وهوانا وشيطاننا فلن نتصر يوماً على جهلنا وتأخرنا وتخلفنا، ولن يكون لنا عندها في معين النهضة منهل، وهذا (الأميري) يدعو إلى الصبر والصمود بلغته الخاصة، فيقول في مقطوعته (زفرة):

فلا عتب على حر
إذا ما قلبه أوّه
وبعض تأوه الإنسان
معدود من القوه
وريب الدهر عند الصبر
والإيمان كالرغوه
وصبر الحر مهما مر
صبر مزجه نشوه
وإن المرء روح المرء
لا جسم ولا كسوه

الأميري .. مع الله:

و(الأميري) دائماً في غمرة صراعه يتطلع إلى الله في حرقة ولهفة ألا يدعه يهوي؛ ولم يستطع الأميري نشر شعره - تأدياً - قبل أن يكون عن الله ومع الله، فنشر أول دواوينه وكان بعنوان مع الله وهاهو ذا يناجي ربه في مقطوعته (شكوى) بقوله:

إني فتى والصبر من عادته
لكن صبري في الهوى لا ينفع
فاكشف لمضني القلب مر أذاته
يا من إليه المشتكى والمفزع

عندما يغيب الصمود:

ويرسم (الأميري) - بحزن - صورة الواقع الإسلامي عندما يفارقه الصمود،
فتبرز الدنيا في أركانه، وينقلب الميزان؛ فيعلو الفاجر ويعجز الثقة:

تبلد في الناس حس الكفاح
ومالوا لكسب وعيش رتيب
يكاد يزعزع من همتي
سُدور الأمين وعزم المريب

ويخاطب (الأميري) المستقبل الغائب، في لوحة شعرية رائعة أسماها (افتحي
الباب).. وكأنه قد رسم للغيب بابا والمسلم طارقه:

قرعت بخاقي، باب الغيوب
وقلت لها: افتحي لفتى دؤوب
إذا أبطأت، أو أبطأت عني
تولى الركب، وانسدت دروبي

ولا تهدأ نفسه حتى يعلن عزمه على خوض الصعاب مادام الله معه في طريقه
ومساره:

حقوق العلى في جناني غضابُ
تذود رقادي بوخز الحراب
تنبه مالم ينم قط من ضميري
وتقذف بي في الصعاب
ولست أجانب خوض العقاب وإن
هد جسمي خوض العقاب

وهنا نتذكر الحديث النبوي الشريف عن حذيفة - رضي الله عنه - مرفوعاً: "يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق"، و(الأميري) لا يخوض صراعاً مع نفسه والصعاب إلا ويستغيث بربه أن يسدد خطاه، ويكمل مشواره في مقطوعته السابقة ويقول:

ولكني أراني مثل الشراع
الفريد العنيد بقلب العباب
أكافح وحدي كالمستमित
وأترك لله فصل الخطاب

إرادة الصمود وإرادة التغيير:

كان هذا هو (الأميري) في شعره وصموده والتجاءه لربه، ونحن اليوم إذ نواجه الحملة الصليبية الجديدة على عالمنا الإسلامي، وسيل الإعلام الموجه على ثوابتنا بلا سدود، وافرازات العولمة تلف مجتمعاتنا، وتبعات الحاضر، وتطلعات المستقبل، في أعناقنا.. لا خيار لنا سوى تقوية صفوفنا الداخلية بإرادة الصمود حيال عاديات العصر، والصبر على واجبات التغيير في ثقة بالنصر من الله العزيز الحكيم.. وهذا ديدن (الأميري) في شعره:

نحن في أمر الرسالة في الأهم
أنا في صراطي مُصعدُ
والناس في مدحي وذمي
سأظل مثل الحق لا يعلو لِيُطْلَ مدلهم
وأصبُ جلجلة القصيد بمسمع الدهر الأصم

وبعد:

فإن (الأميري) .. ذلك الشاعر الشفيف، هو ذلك السياسي الوزير والمجاهد الأكاديمي السفير؛ فنحسبه - والله حسبه - قد سعى نحو المعالي، فأصبح للسياسيين قدوة، وللشعراء ندوة، وللشباب الحيارى في دواوينه حظوة؛ فقد تكلم كثيراً عن اضطراع الهدى والهوى، والعفة والشهوة، لكنه كان دائماً في انتصار؛ وهذا النموذج هو ما يشتاق إليه شباب اليوم شوقاً، ويهتزون لذكره طرباً.. أن كان قبلهم من رجال الحركة الإسلامية وأدبائها من أحس بمواجعهم وخاض صراعهم؛ بل من أخدم نار هواه.. وانتشى في علاه .. ألا رحم الله الأميري.

- (١) ديوان ألوان طيف - عمر بهاء الدين الأميري - ١٤ - بدون تاريخ
- (٢) ديوان مع الله - عمر بهاء الدين الأميري - ٢٤٠ - دار الفتح - بيروت - ١٣٩٢ هـ.
- (٣) المرجع السابق - ٢١٩.
- (٤) علاقة الأدب بشخصية الأمة - د/عبد الرحمن العشماوي - ١٥٠ - مطبعة العبيكان.